اعتراف الأئمَّة مِنَ العُلَمَاءِ بِفَضْل شَيْخ الإسلام ابْنِ تَيْمِيَّة

بقلم الشَّيخ محمَّد بن عبد الرَّزَّاق حمزة[1]

«قَرَأْتُ كلمة الأستاذ الوجيه السَّيِّد محمَّد نَصِيف في الدِّفاع عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة، ولِي رأيٌ في المسألة أضمُّه إلى رأي الأستاذ وأَدْعَمُهُ بِهِ، تَجْلِيَةً للصَّواب، وبيانًا للحقّ، وإظهارًا لفساد تُهَم ومزاعم خاطئة تورَّط فيها كَاتِبُوهَا، جَرْيًا وراء تعصُّبهم الأعمى وانحيازهم الممقوت.

شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة اتَّفَقَ على تعظيمه وعِلْمِه أكابرُ العلماء من مُوَافِقٍ ومُخَالِف، وانتفعوا بكتبه وتحقيقاته في المعقول والمنقول من عصره إلى الآن ، لا يكاد يُحْصِيهم العَد، ولا تحوي أسماءهم وثناءهم عليه مجلَّدات، ومن أولئك الأئمَّة الَّذين أثنوا على ابن تيميَّة وقرَّظوه، وحملوا إلى الآفاق سيرته العطرة، ومواقفه المشهودة في الدِّفاع عن العقيدة السَّلفيَّة، وعن السُّنَّة المطهَّرة، والنِّضال عن رأيه وعقيدته ومذهبه: الإمامُ الذَّهبي، وابنُ القَيِّم ، وابنُ كثير ، والمِزِّي ، والعَيْنِي الحَنَفِي، والبُلْقِينِي، ومَن عاصرهم، والعراقي، وابنُ حَجَر العسقلاني، وتلاميذه، كالسَّخاوي، والبِقَاعِي، ومَن بعدهم، كالسُّيُوطي، والمُلَّا علي القَارِي الحَنَفِي في الجزء الأوَّل مِن «جمع الوسائل شرح الشَّمائل» (ص206)، وهَلُمَّ جَرًّا. وكُلُّهم ينقلون قولَه مع الاحترام للموافقة أو المخالفة، كما يخالف العلماء بعضُهم بعضًا مع الأدب والتَّوقير، حتَّى إنَّ أَشَدَّهُم مخالفةً له كالسُّبْكِي وابنه التَّاج ما استطاعوا أن يجحدوا فضله، أو يتجاهلوا قدره، فما علينا بعد ذلك أن يقع فيه شرارُ الخَلْق كالرَّافضة، والقُبُوريَّة، والحُلُولِيَّة الاِتِّحَادِيَّة، والإِبَاحِيَّة مِن الطُّرُقِيَّة، وجَهَلَة المُقَلِّدَة، وللإمام ابن تيميَّة ومُحِبِّيهِ أن يتمثَّلوا بقول القائل:

---

(1) نُشِرَ في مجلَّة «الإسلام» ـ مصر، السَّنة الخامسة، العدد (39)، يوم الجمعة 11 شوَّال سنة 1355هـ –الموافق 25 ديسمبر سنة 1936م، (ص24ـ25).

إِذَا رَضِـــيَتْ عَنِّـــي كِـــــــرَامُ عَشِيـرَتِـــــــي فَـــــلَا زَالَ غَضْـــــــــبَانًا عَلَـــيَّ لِئَامُـــــهَا

على أَنَّ مِمَّا حَبَّبَ إلى قلوبنا ذلك الإمام، بعد معرفتنا فضله، وإيماننا ببلوغه الغاية في العلم والورع والتَّقوى، ونصره لكتاب الله تعالى وسُنَّة نبيِّهِ ﷺ ـ هُوَ بُغْضُ أولئك الأشرار له، ووقوعُهم فيه، ومَقْتُهُم لِمُوَافِقِيه:

وَإِذَا أَتَتْـــكَ مَذَمَّتِـــــي مِـــنْ نَاقِـــــصٍ فَهِـــيَ الشَّـــهَادَةُ لِـــي بِأَنِّـــي كَامِـــلُ

أمَّا إذا أردنا أن يُطْبِقَ النَّاس قاطبةً في كُلِّ عصرٍ على حُبِّ الإمام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورَوَّحَ رُوحَه، وأعلى درجته في عِلِّيِّين ــ فقد أردنا المُحَال. فإِنَّ هذا أمرٌ لم يخلق الله عباده عليه، ولم تَجْرِ سُنَّةُ الله في خلقه بِجَمْعِهم على كلمة الحق، بل جَرَت دائمًا بِطَبْعِهِم على الاختلاف، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:118-119]. فَقُلْ لِي بِرَبِّك: هل أَطْبَقَ النَّاس على حُبِّ الله وتوحيده، والإيمان به وبِرسله؟ هل صَدَّقَ فرعونُ وجنودُه كَلِيمَ الله موسى؟ هل آمن اليهود بِعِيسَى نَبِيِّ الله ورسوله وكلمتِهِ الَّتي ألقاها إلى مريم العذراء الطَّاهرة البتول ...؟ هل آمنوا بخاتم أنبيائه محمَّدٍ ﷺ وعلى سائر إخوانه المرسلين؟

سأل مالكٌ أحد تلاميذه، لعلَّه مُطَرِّف بن عبد الله، عند فراغه من تأليف «المُوَطَّأ»: ماذا يقول النَّاسُ فيه؟ فأخبره بِاختلافهم، فقال الإمام مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الحمدُ لله، لا يزال هذا شأنهم، نعوذ بِاللهِ مِن اتِّفَاقِ الكلمة على الذَّمِّ**»، أو ما هذا معناه، فَلِلهِ دَرُّ الإمام مالك، ما أَعْرَفَهُ بطبيعة النَّاس؟؟ أَمَّا هؤلاء الخفافيش الَّذين عَمِيَت بصائرُهم عن فضل هذا الإمام، فَهُم في الحقيقة إِنَّما يُذِيعُونَ فَضْلَهُ مِن حيث لا يشعرون.

وَإِذَا أَرَادَ اللـــــــهُ نَشْـــــــرَ فَضِـــــــيلَةٍ طُوِيَـــــتْ، أَتَـــاحَ لَهَـــا لِسَـــانَ حَسُـــودِ

وهذا هو الواقع، فإنَّ عندنا في بلادنا رجلًا ما فتح قَلْبَه لِحُبِّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة وكُتُبِهِ وحُبِّ مُحِبِّيه، والوقوف إلى جانب مُوَافِقِيه إلَّا إِدْمَانُهُ في أَوَّل أَمْرِهِ قراءةَ كُتُب النَّبْهَاني، فحَفَزَتْهُ هِمَّتُهُ إلى أن يقرأ كُتُبَ ذلك الَّذي أَوْلَعَ النَّبْهَانِي بِذَمِّهِ والزِّرَايَةِ عليه، ففَتَحَ اللهُ بَصَرَهُ لِمُشَاهَدَة نُور الحق، وعَرَفَ خَطَأَ ما كان يظنُّه ويتوهَّمُه، مع أَنَّه كان يقرؤُها قراءةَ إيمانٍ وتصديقٍ بِصِحَّة ما جاء فيها وموافقته للواقع، وكان مُتَصَوِّفًا على طريقة الخَتْم السُّودَانِي، ووصل فيها إلى درجةٍ محترمةٍ عندهم.

وأنا الفقيرُ رَاقِمُ هذا البيان، وكَاتِبُ حروفه ـ ما فتح آذاني لِسَمَاعِ آراء ابن تيميَّة، والانتفاع بكتبه إِلَّا إِغْرَاق طُرُقِيٍّ في شتمه وذَمِّه، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ.

ومَثَلُ أولئك الَّذين يصدُّون عن سبيل الله، ويَبْغُونَهَا عِوَجًا مَثَلُ قُطَّاع الطَّريق، مَن اشتغل بهم عَاقُوهُ عن السَّيْر وانحرفوا به عن جَادَّة الصِّراط المستقيم، ولا أزال أحفظ عن بعض الأصدقاء ـ ما معناه: إنَّ الرَّجل المصلح السَّائر في طريق الخير والفلاح ينبغي له أَلَّا يلتفت إلى مَن يَعترضه في طريقه، وأَلَّا يَأْبَهَ لِقَولِ مُعَارِضٍ يَرْزَؤُهُ أو حَاسِدٍ يَشْنَؤُهُ، وإِلَّا انقطع به السَّيْر ووقف من حيث ابتدأ. وأعرف كاتبًا مصريًّا نَهَجَ لِنَفْسِهِ طريقًا في مخالفة أهل الحَقِّ ظَنَّهُ حَقًّا، وتوهَّمَهُ صِدْقًا، ومشى فيه قُدُمًا، وسار عليه أممًا، لا يَلْوِيهِ عن السَّيْر فيه قَوْلُ مُعَارِض، ولا نَقْضُ مُخَالِف، ولم يلتفت إلى مَن اشتغلوا بمناظرته والرَّدِّ عليه على كثرتهم، فإذا كان هذا عمل أهل الحَزْم مِن المُبْطِلِين، فلماذا لا يَسِيرُ عليه أهل الحق!؟ مع أَنَّ معهم الحَقّ الَّذي يعرفه لهم طَالِبُو الحق، ولا يَضُرُّهُم أن يكون في النَّاس مَن يُنْكِرُ الحَقّ، فاللهُ هُوَ الحَقُّ ودِينُهُ الحَقّ، وسينصره في كُلِّ زمانٍ أَهْلُ الحَقّ، وحَسْبُنَا هذا وكفى، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى. **محمَّد بن عبد الرَّزَّاق حمزة**».